

البحث التفاعلي والبحث التطبيقي(*)

د / ميلود سفاري
معهد علم الاجتماع
جامعة قسنطينة

1- البحث التفاعلي:

إن أول من استعمل تعبير (البحث التفاعلي) أو البحث بالفعل هو كورت ليون Kurt Lewin سنة 1946 بيد أن استعماله كان منذ البداية مغايرا تماما لما هو مقصود به الآن. وقد سبق لـ باجيز Pagès أن وضع أصنافا للبحث بالفعل هي:

- 1- البحث في القرارات الحقيقية وتقنيات الإتصال خارج الوضعيات المخبرية.
- 2- المقارنة التجريبية لمختلف تقنيات الفعل انطلاقا من فعاليتها.
- 3- وصف مشاركة الباحث في النشاط بهدف تسجيل ما يحدث.
- 4- البحث ليس عن الفعل ولكن في الفعل بالتعاون مع الفاعلين أنفسهم. (1)

إن القاسم المشترك الأدنى لكافة أشكال البحث بالفعل أو التفاعلي بأنواعه هو التغلب على الفصل للأدوار بين الباحثين، الممارسين والأشخاص المبحوثين. وقد انطلق النقاش حول هذا الموضوع منذ الستينيات خاصة في ألمانيا الغربية وإيطاليا حيث تمخض النقد الذي وجه إلى الهيمنة الاجتماعية داخل المجتمع وإلى سيطرة الصرامة المنهجية للمنهج الوضعي على النظام العلمي عن ظهور هذا المدخل الجديد الذي تم الإعلان فيه «عن البحث الاجتماعي باعتباره فعلا سياسيا» (2). وقد تم تطبيق هذا النوع من البحث في الميدان البيداغوجي خاصة. كما وضع له «بريم Prim» أربعة مبادئ أساسية هي: إن إختيار المشكلة يتم بالإتفاق مع الأشخاص والجماعات الذين يمثلون ميدان التطبيق العملي.

البحث يهدف إلى تغيير الواقع الاجتماعي من خلال الفعل المشترك لكافة الأشخاص المعنيين بعملية البحث - إن مناهج البحث ذات التوجه النوعي تسمح بالحصول على ردود الفعل المتميزة فرديا (3).

لقد كان التوسع الذي عرفه هذا النوع من البحث مغايرا في إيطاليا، حيث انطلقت مجموعة «كوادرني روسي Quaderni Rossi» في التحليل العاملي ضمن كل من شركتي فيات Fiat وأوليفتي Olivetti منذ بداية الستينيات.

ومن الصعب الحكم من الخارج ومن خلال الوثائق إلى أي مدى كان هذا الجدل مشاركا، إذ يبدو أن المشروع كان بمبادرة من مثقفين خارجيين، بالرغم من أن المصطلح الغرامشي عن المثقف العضوي يكون قد استعمل بمثابة الأب الروحي، وقد كانت المحاولة بالغة النجاح في مجال طب العمل حيث أن عدم تدخل الخبراء الخارجيين سمح للعمال أن يحللو بأنفسهم المشاكل الصحية المتعلقة بظروف عملهم (4).

«إن المرء لا يختار منهجا فكل منهج يتطابق مع مصطلح لسلوك اجتماعي معين». بهذه العبارات يستهل «توران Touraine» شرحه لمنهجه المسمى «التدخل السوسيولوجي» (5). إن هذا البرنامج الذي يطرحه «توران» هو أكثر برامج البحث التفاعلي تفصيلا وإتقانا يتم تحقيقه إلى الآن.

إن التدخل السوسيولوجي المكرس أصلا لبحث حركة التنازع يمكن وصفه بأنه مسار طويل المدى والذي يؤدي ابتداء من ربط العلاقة المتبادلة بين الباحثين والفاعلين المعنيين إلى وضع خط ذهاب وإياب بين التحليل والفعل، بين الباحثين والفاعلين (6) ويعرف «توران Touraine» علم اجتماعه بنفسه بقوله:

«إن فكرة علم الاجتماع الدائم هي أنه بمجرد أن يكون التحليل قد عين الحركة الاجتماعية الممكنة وبعد الممارسات التي تفصلها عن هذه الحركة فإننا نضع تحليلنا بين يدي الفاعلين، وهم سوف يدمجونها بشكل ما في نشاطهم يستعملونها في تحليل وضعيتهم، ثم يعيدون إلينا هذا التحليل ونحن بدورنا سوف نقوم بتعديل وتحويل وتكييف تحليلاتنا الأولية، وبالتالي سوف يكون هناك ذهاب وإياب دون حدود بين التحليل والفعل» (7).

عالم يكن هناك طلب من الفاعلين فلن يكون هناك تدخل سوسيولوجي، فهذه عملية طويلة وربما لا نهائية : يتم في البداية إنشاء مجموعتين كل مجموعة تضم باحثين اثنين وعشرة مناضلين في الحركة والذين لا يمثلون الحركة وإنما يمثلون

أنفسهم وبالتالي فإن أعضاء الفريق يجب أن يصبحوا شعبيين ولديهم الميل لأن يكونوا كذلك وليسوا رسميين، غير أن المنظمة يجب أن تكون على علم بهم وتقبل تدخلهم وليس هناك أسرار بين الجماعة، وهناك حدود واضحة بين دور علماء الاجتماع ودور الفاعلين. ويظل الباحثون محللين يقررون فيما إذا كان نوع ما من الصراع يستحق الدراسة أم لا، والهدف من تدخلهم هو هدف معرفي.

تشكل مجموعات اصطناعية، لأنها غير موجودة طبيعياً. وتعتمد الطريقة على مواجهة أفراد الجماعة بأشخاص لهم نظرة معاكسة مثل مواجهة أشخاص من دعاة نزع الأسلحة النووية مع ممثلين عن شركات الكهرباء، مصانع الطاقة النووية إلخ... وتستمر هذه الجلسات لمدة حوالي ساعتين بهدف تحطيم الحساسيات الأيديولوجية وتحضير أعضاء الجماعة «للهداية».

يقال أن علماء الاجتماع لا يفرضون أيديولوجية أخرى ولكنهم يفتحون المجال للتحليل فقط. يأخذ أحد علماء الاجتماع دور المترجم ويكون الآخر المحلل. ولعل أصعب الأوقات هي تلك التي يعرض فيها علماء الاجتماع... عند نهاية الأسبوع تحليلهم للصراع ويحللون «هداية» أعضاء الجماعة، فعلماء الاجتماع هم الذين يكتبون «التحليل الذاتي».

إن النظرية هي التي تتحكم في التدخل وتحدد دور الباحثين، غير أن المناضلين ليسوا باحثين مبتدئين ولا علماء الاجتماع مناضلين عضوين. فحتى لو دُفع المناضلون إلى موقف يستوجب التحليل فإنهم سوف يضلون مناضلين ولا يمكن أن يقولوا «أي شيء».

لكن ماذا عن علماء الاجتماع؟ (8)

في عملية الإسترجاع feedback يعاد عرض التحليل على المناضلين في إطار اختبار الثقة والصلاحية. وعلى علم الاجتماع الدائم قياس المسافة بين الحركة الاجتماعية ومعنى الصراع لأن التحليل يظل مبنياً على الصراع الاجتماعي. ومع ازدياد دقة المنهج تزداد قيمة علم الاجتماع الدائم ويصبح أكثر أهمية. بل أكثر من هذا فإن «توران وآخرون. Touraine et al» يطمنون أن تستمر حياة التحليل ضمن الحركة، وتحاول جماعة «توران Touraine» تخليص أنفسهم من البحث بالفعل الذي يتزعمه «لوين Lewin» لأنه كما يدعون غير تجريبي أو كمي، غير أنهم يقرون بأن لوين قد تخلى فيما بعد -عن مناهج الكمية، كما يتفقون مع «لوين Lewin» على أن العمل مع المجموعات يفهم العمليات الاجتماعية عامة بالحيوية والنشاط. وتكمن أهمية التدخل السوسيولوجي بالنسبة لعلم الاجتماع في إنتاج المعرفة الاجتماعية خاصة تلك المتعلقة بالحركات

الاجتماعية وعلى المناضلين الاستفادة من المعرفة المنتجة لإيجاد موقع أفضل لفعلهم.

أعطي الإهتمام لتطبيق هذه الطريقة لجماعات اجتماعية أخرى مثل الجماعات الهامشية بتقنيات أقل «ثقة» وأقل «صرامة» بالرغم من أن الظروف الحالية السياسية والاجتماعية لا تبدو مناسبة، ويرفض «توران Touraine» الفكرة القائلة بأن التدخل السوسيولوجي هو تطبيق نظرية معينة على مشاكل تاريخية خاصة (9) غير أنني لست متأكدا تماما، إذ لا أجد من أين تأتي النظرية إلا من علماء الاجتماع المتدخلين. فالمناضلون على ما يبدو، لهم أيديولوجية فقط وليس لهم نظرية. كما أنه ليس هناك أية إشارة إلى من سيقوم بفحص علماء الاجتماع ويختبر مناهجهم، وبالرغم من أن المناهج الكمية لم تكن مستخدمة إلا أن فروق البحث تتكلم عن «التحقق» و«الصلاحية» بعبارات غاية في الموضوعية. ويتم دفع الجماعات إلى أعلى مستويات الوعي فيما يشبه الوضعية السابقة

التدخلات السوسيولوجية الأولى كانت ضمن النضالات الطلابية: «إن تحليل المجتمع المعاصر لا يمكن أن يكون إلا أيديولوجيا ما دامت مثل هذه الحركات الاجتماعية لا تخلق الممارسة التاريخية التي يمكن لعلم الاجتماع بعد ذلك دراستها ووصفها وتفسيرها» (13) غير أن التفسير السوسيولوجي غير مسموح له بإعادة إنتاج وعي الفاعلين والتشويش على خطابهم بعلمه الخاص. في سنة 1969 كان يعتقد بأن علم الاجتماع لم يسبق له أن حظي بموقع أفضل لإعطاء التوجيه للمجتمع، فالنمو اليوم والتغير لا يمكن فهمهما فقط بالتحليل الإقتصادي ولكن يفسران أكثر بأنهما نتيجة للعمليات الاجتماعية. ويتوسع ميدان التحليل السوسيولوجي كلما توسعت قدرة المجتمع على الفعل فإذا اندحرت تحديات الحركات الاجتماعية فإن «علم الاجتماع سوف لن يصبح أكثر من الوعي السيئ للمجتمع»... فعلم الاجتماع هو وحده القادر على حل التناقضات بين القبضة المجهولة للكنوقراطية والتمرد باسم الإبداع الشخصي والجماعي (14).

إن المشكل الفكري الذي يواجه علم الاجتماع هو المشكل السياسي الذي يواجه المجتمع والمتمثل في كيف يمكن تحويل المواجهة الحتمية والتي ليس لها مخرج مباشر من النفوذ والتمرد إلى تنمية ومشاركة صراعية في التغير الاجتماعي (15) ثم يصل إلى النتيجة التي مؤداها بأن علم الاجتماع كان دائما مواكبا للتغيرات التي حدثت هنا وهناك. فالأزمات تسمح لعالم الاجتماع بأن يعيد اكتشاف وحده هدف دراسته وبالتالي يعيد إكتشاف فعله هو ذاته (16).

هل التدخل السوسيولوجي هو الإجابة الصحيحة فعلا؟ يبدو لي شخصا أن المدخل المقترح يحتوي على الكثير من «الانتلجنسيا العائمة بحرية لـ» كارل منهايم Karl Manheim والذي لم يشر إليه «توران Touraine» إطلاقا.

هل منهج البحث هذا يعطي حقيقة نوعا جديدا من النتائج؟ شخصا لا أجد شيئا أصليا في المجادلات المعروضة سوى مجرد إدعاءات. أفلا يعتبر إنشاء فرق للبحث نوعا من الوضع المخبري - بالتأكد أكثر من الأوساط الطبيعية والحقيقية لـ «لويين Lewin» وأخشي أن يكون هذا المدخل أقل دقة من البحث المشاركتي... ذلك أنه لم تكن هناك أية محاولة بل مجرد محاولة لإقامة المساواة بين الباحثين و«الزبائن» وهذا في تقديري يعود إلى الأسس النظرية التاريخية للمدخل، لنظرية اجتماعية معينة للحركات الاجتماعية ذاتها والتي يجب أن تتم هدايتها من طرف علماء الاجتماع ولكن ليس إلى علماء اجتماع إن المبالغة في إعطاء دور لعلم الاجتماع يدفعني إلى وصف هذا المنهج بأنه منهج علم اجتماعي - Sociological وعلى الرغم من الإدعاء بأن الهدف ليس التمهيد للعقائدي السياسي

فإن المذهب السوسيولوجي لا شك قائم. وقد تعرض مدخل «توران Touraine» لهذا السبب للنقد، وسوف يظل البحث مستمرا لإيجاد مناهج بحث أخرى توحد بين العلماء و«الفاعلين» على أسس أكثر عدلا.

2- البحث التطبيقي:

لقد حاول «أكي صاندبرغ Ake Sandberg» تطوير البحث التفاعلي والقضاء على النقائص فيما يسميه «بالبحث التطبيقي» (17). وقد كان فهمه للبحث الاجتماعي على أنه موجه أيضا إلى دعم الجماعات الضعيفة في المجتمع. وقد كان هذا البحث موجها إلى تطوير المعرفة ومؤازرة الفعل... إن نوعية النشاط المسمى بالبحث التفاعلي أو البحث بالفعل (Action Research) يجب أن ينظر إليه كفعل وجزء حوار من مجهود بحثي أوسع، والذي سوف أسميه «البحث التطبيقي». وما دام البحث بالفعل يتميز بالتفاعل الشديد بين الفعل والبحث، وبين النظرية والتطبيق فإنه يحتفظ بالعناصر التالية:

«إنني أعتبر المقصود هو تلك الحالات التي يكون الباحث قد شارك في عملية التغيير بتوفير المعارف من مختلف الأنواع، بالإضافة إلى الإرجاع المستمر للتقويمات المتعلقة بمحاولات التغيير ونوعية المعارف هي تلك التي تساهم في فهم الوضعية... كما تساهم أيضا في تطوير بدائل من أجل الفعل» (18).

وكما سبقت الإشارة إليه فالبحث بالفعل يمكن أن يتفاعل مع أنواع مختلفة للفاعلين، مثل العمال والإدارة والمناضلين والرسميين. وهذا النوع من البحث الممارس في الدول الإسكندنافية يعتمد على القيمة التي تعتبر أن الأشخاص يجب أن يعاملوا كمواضيع في عملية البحث وإن مثل هذا المدخل ينسجم مع النضال من أجل الديمقراطية المشاركة (19). قد استطاع «صاندبرغ Sandberg» أن يضع معايير بناء على تجربته مع مجموعة من المشاريع مثل «يوتوبيا Utopia» و«ديموس Demos» التي قام بها المركز السويدي للحياة العمل بالإشتراك مع النقابات وقد كانت هذه المعايير كما يلي:

يمكن النظر إلى البحث على أنه ممارسة اجتماعية تتميز بأن الباحث يجب أن يكون باستطاعته أن يستعمل مؤهلاته المهنية، ولكي يتمكن من ذلك فإن عليه أن يطالب بالرقابة في سير عملية البحث، وبمنظور طويل المدى، والحصول على المعلومات وإمكانية النشر وبهذه الطريقة يستطيع الباحث تطوير معارف جديدة ويثبت لمجموعة البحث بأنه باستطاعته أن يحصل على نتائج ويعرضها للنقد. أما ممارسة النقابة فإنها تتجه إلى خلق الظروف لرعاية مصالح أعضاء النقابة... وعليه فإن الفوارق بين أهداف النقابات وأهداف البحث هي: منظور قصير المدى

في مقابل دراسة المشاكل وتوسيع المنظور، التعبير عن الرؤى والمطالب من خلال التدريجية التنظيمية، مقابل التعبير عنها من خلال عملية البحث، المعرفة المفيدة محليا مقابل النظريات والتعميمات (20).

لا يرى «ساندبرغ Sandberg» إمكانية تضيق الهوية في إطار البحث بالفعل ولكنها ممكنة في البحث التطبيقي فقط حيث يقول: «أعني بالبحث التطبيقي النشاط الذي يحتوي على الحوار، وفيه جزء من النشاط يخضع لفعل ممارس وجزء مفاهيمي أو فاعلي يخضع للممارسة العلمية. ومن الواضح أن الجزئية هما عبارة عن نشاطين منفصلين لأنهما يتمان في جزئين مختلفين من تنظيم البحث أو عبر مرحلتين مختلفتين من الزمن... وعليه فإن البحث التطبيقي يتميز بتفاعل واسع ومخطط بين فعل ومرحلة حوار في البحث، ومرحلة تتميز بمفاهيم بعيدة وتفكير أعمق» (21).

ويركز «ساندبرغ Sandberg» على النقطة التي مفادها أن الإجراءات والمناهج في الفعل والحوار يجب أن تكون مبنية على وثائق متطورة وحتى موحدة النمط، ويرى أنه حينما يهيمن التغير الاجتماعي والعناصر المحلية فإن البحث التفاعلي قد يكون أكثر ملاءمة بينما تبدو استراتيجية الخبير أكثر ملاءمة حينما يكون الهدف هو «التغيير البنائي» غير أنه يمكن أن تكون هناك وضعيات مشاركة حينما يحدث التغير الاجتماعي من خلال التبادل بين التغير المخطط مركزيا والتنشيط المحلي ومعالجة المشاكل، ومن ثم قد تأخذ بعض أشكال البحث التطبيقي العملي مع الحوار ومرحلة للفعل (22).

لقد حاول «بيتر. س. دانييل Peter C. Dienel» أن يطبق مدخلا مماثلا في ألمانيا الغربية بوضعه لخلية للتخطيط (23) وهي عبارة عن طريقة في البحث الاجتماعي التطبيقي لا نسنة السياسة، أي أنها مستعملة في إطار اتخاذ القرارات في القضايا العامة واندماج المواطنين في عملية صياغة الأولويات، إذ تلتقي فرق من المواطنين المهتمين بتخطيط المدينة مثلاً في سلسلة من الاجتماعات نهاية كل أسبوع مع خبراء وسياسيين لوضع الأولويات الخاصة بهم.

وكرد فعل على المضامين القوية جدا للبحث التفاعلي وضع «ويربر فريك Werber Fricke» مدخلا سمي بالبحث الموجه بالفعل (24) وتتميز به الأهداف الساعية إلى تغيير حقيقة البحث من خلال : المشاركة في قرارات البحث، توسيع إتصال البحث المماثل، البحث كعملية تعلم. أما الطرق فهي وسائل التعلم الإتصالية. فيما تكون النتائج المحصل عليها هي : البحث كعملية تعلم، عقلنة الهيمنة والتغلب الإتصالي على التقسيم بين الهدف والموضوع.

من المؤكد أن «صاندبرغ Sandberg» قد كان مصيبا في وصف الصعوبات التي تتعرض للبحث التطبيقي وبالتالي فإنه يبدو واقعيًا في تفكيره حول عمليات التنفيذ الفعلية وطريقته تشبه في بعض أوجهها طريقة «توران - raine» مع فرق جوهرية هو أن مدخل «توران Touraine» يشتمل على اسم : أي تمييز مبني على أساس نظري بين العلماء ودور الحركيين بينما تظهر هذه الصعوبات في مدخل «صاندبرغ Sandberg» على أن سببها يعود إلى البناء الاجتماعي وإلى علاقات القوة القائمة «فهذه المشاكل لا تعبر بالضرورة على التناقض، ولكن يمكن اعتبارها بمثابة الإشارة وفي نفس الوقت كقوة دافعة نحو تطوير العمل المشترك (25)، إن تحديد ماهية العلم، وما تقبله جماعة العلماء على أنه نتيجة يعتمد على علاقات القوة. من يتحكم في العلم؟ وكيف؟ ومن يتدخل في التخطيط وفي أي اتجاه؟.

وبالتالي فإنه يبدو على أننا نعود إلى نقطة سبق التطرق إليها في الأجزاء السابقة وهي : « دور البحث كعملية تعلم»، ففي مقال حديث له يطرح «ستيفن م. صاكس Stephen M. Sachs» فكرة أن إقامة الديمقراطية السياسية دون تطوير ثقافة مشاركة كانت في الغالب فاشلة (26). أليس البحث في ظروف حياة المرء ذاته وعمله هي أحسن مكان لتطوير هذه الثقافة؟

المراجع

(*) البحث مترجم عن:

Gyorgy Szell : Participation, Worker's Control and self management - Current sociology - volume 36 N3. Winter 1988-ISA, Arrowsmith, Bristol, UK. PP. 147-154

- 1- Reported in neumann, Lothar F. (ed) : Sozial forschung and soziale demokratie, Bnn, Verlag Neu Gesellschaft.
- 2- Fuchs, Werner : "Sozialforschinf als politische aktion" Soziale welt, 1970: 1-17.
- 3- Prim, Rolf: Aktionsforschung als leitbild praxisverpflichteter sozial wissen-schaft, in L.F. Neumann (ed), 1979 : 12-21. P. 16.

- 4- Abholz Hetal: Die Entwicklung der Arbeitermedizin als Beitrag zur Humanisierung der Arbeit, WSI - Mitteilungen 31 (2) 1978 : 105-13
- Bagnara et al, work and Health in the 1980 : Experiences of direct worker's participation in occupational health - Berlin - West, ed. Sigma 1985.
- 5- Touraine and Hegedus et al : la prophétie anti-nucléaire Paris. Editions du seuile 1980, P.317.
- 6- Dubet and Wiewiorka : "L'intervention sociologique" RIAC 5/45, 1981 = P. 115
- 7- Cited in bernfeld, Dan : "La recherche-action-resurrection réaliste : de la participation RIAC 5/45, 1981 P. 179, 185, 184.
- 8- Dubet and wiewirka, op. cit. P. 119.
- 9- Touraine et Hebedus et al : solidarité, analyse d'un mouvement social, Pologne 1980-81 Paris Foyard, 1982, P. 319
- 10- Ibid 323
- 11- Ibid 330
- 12- Touraine Alain : La société postindustrielle naissance d'une société. Paris, Donoël Gauthier, 1969, P. 307
- 13- Ibid 311
- 14- Ibid 314
- 15- Ibid 315

16- Ibid 315

17- Sandberg, Ake : "Socio technical design" trade union strategies
: and action research in E. Mumford et al (eds)
Research methods in informations, Amsterdam, North Holland,
1985, P. 86

18- Ibid 87

19- Ibid 87

20- Ibid 88

21- Ibid 89

22- Ibid 90

23- Peter C. Dienel : Die planungs zelle, Eine Alternative zun
establishment demokratie, 6 pladen,
wesoutscher verlag,1987.

24- Fricke, werner and wilgart Schuchardt (eds)
Beteiligung als element gewerk schafliche
arbeits politik.
Erfalrungen aus Norawegen, Italien schweden and der
Bundesrepublik, Bonn Verlag neue gesellschaft,
1984, report n a seminar held in Bonn in 1983.